الواجبات للقريب

لحضرة الكاتب الجهبذ فرح افندي انطون ناظر المدرسة الارثوذكسية باسكلة طرابلس

جرى على السنة العامة مثل قد تقولهُ الخاصة بلا تروٍّ وهو: "فلان كافي الناس خيرهُ وشرهُ" يريدون بذلك انهُ عاقل فاضل بجنب الناس لا يضر ولا ينفع أحداً. فهل هذه صفة من صفات الفضل والانسانية؟ . اما مي الآن تحت المكتبة كلب يلحس قدمي ويتشاءب ويتمطى كما عصفت الريح خارجاً فهل يجوز ان يقال فيهِ انهُ حاوٍ صفة من صفات الانسانية لانهُ "كافي الناس خيرهُ وشرهُ"؟ ومرملتي التي امامي هل لها تلك الصفة الكريمة ايضاً لانها كفت الناس خيرها وشرها فلم تشر يوماً ولما في عين احد. وعلى هذا يجب ان يكون عاقلاً فاضلاً كل ما حولي وحولك من الجماد الذي لا يتحرك ولا يضر احداً حتى حجارة الارض ورمل البحار وحصى الانهار. حاشا للانسانية. فما العقل والفضل الا في نفع الناس وخدمتهم وموآساتهم وتخفيف مصائبهم. اما الذي يكفي الناس خيرهُ وشرهُ فهو والحجارة واحد وخير منهُ بكثير من الحيوانات: ولقد احسن من قال

قيمة الانسان ما يحسنهُ اكثر الانسان منهُ او اقل

فمن ظن نفسهُ متمماً واجباتهِ لانهُ لا يضر احداً اي لا يمس حياتهُ ولا صيتهُ ولا حريتهُ ولا شرفهُ ولا مالهُ فقد خدع نفسهُ وقصَّر في ما يجب عليهِ. رأيت على قارعة الطريق لصاً يفتك برجل ولم يكن هناك غيري فتجاوزت ولم اساعد البريء افلا أُحسب شريكاً للمجرم؟ نظرت رجلاً لئيماً يحاول خداع فتاة بسيطة فلم اقم عينها وتركت اللئيم يفعل فعلتهُ الا أُحسب مذنباً؟ سمعت زيداً يتهم خالداً بالسرقة وكنت عالماً ببراءة خالد وحقيقة ذلك للوقت ولم اظهر الحقيقة افلا أُحسب شريكاً للتمام في نميمتهِ؟

كل هذه المسائل لا يلزم اكثر من ذكرها فهي لدى ذكرها تحلُّ من نفسها

نعلم ان الذي يغش الناس عمداً بغشهِ والتاجر الذي يطفف الكيل والميزان لربح نفسهِ انما يسرق من الناس وافادتهم ويترك ذلك اما لكبر ثروتهِ او لعدم اكتراثهِ أيُحسب انهُ قام بالمهمة الانسانية الشريفة التي أُرسل الى هذه الارض من اجلها؟ يسقط الفقير امام دكان الخباز ميتاً من الجوع ولو مدَّ يدهُ وتناول رغيفاً لانقذ حياتهُ ولكن الشريعة الدينية لا تسمح لهُ بذلك صيانةً لمبدإ الملكية وان كان لذلك غاية في القساوة والصرامة. يموت ولا تسمح لهُ ان يأخذ ذلك الرغيف ولا تجبر الغني على اعطائهِ اياهُ. لكن ان لم تجبرهُ الشريعة المدنية على ذلك

والشريعة الادبيَّة تجبرهُ عليهِ اجبارًا لا ردَّ لهُ . فان اهمل ذلك فهو مسئول امام الله بموتهِ من يتأمل الانسان وماهيتهُ وما اعطاهُ الله من القوى والمكان الارفع الذي يشغلهُ في الخليقة والمواهب الثمينة التي خُصَّ بها يقف باندهاش ليشكر المعطي السرمدي ويعتقد اعتقادًا ثابتًا ان تلك القوى الثمينة والمواهب العديدة لم تُعطَ لتستخدم لخير من وُضعت فيهِ دون سواهُ . واذا كنَّا نحن البشر الضعفاء الجهلاء نصلح السراج ونضع فيهِ زيتًا لاخدمتهِ بل لكي يضيء على كل من في البيت ألا يجب ان نفهم ان الزيت الالهي ما وُضع في سراج اجسادنا لنستضيء بهِ نحن فقط بل لنرسل ضياءهُ ايضًا على جميع اخوتنا بني الانسان اي ان نحبهم ونساعدهم ونبذل ارواحنا وقوانا واموالنا وكل ما في امكاننا وتحت يدنا في سبيل خدمتهم وحمايتهم واطعامهم وإنارة عقولهم وصنع الخير اليهم . فاذا لم نصنع ذلك ماذا نقول غدًا متى امتثلنا لدى العدالة الازليَّة ؟ أتقول اننا طمرنا فضتنا في الارض مثل العبد الكسلان ؟ ام نقول اننا لم نضر احدًا ؟ لهل عمي ارسلتنا الى الارض لنكون كخشاش الارض بلا نفع ولا فائدة ؟ ولماذا أُعطينا الفكر والارادة اذا كانت الفضيلة في عدم النفع وعدم الافادة ؟ ولماذا اعطينا هذا القلب الملتهب اذا كانت الحكمة تسمح باطفاء لهيبهِ ؟ ولماذا القرائح والعقول اذا كنَّا نضطرها ان تخرس وتفنى ؟ حاشا كلاَّ ثم كلاَّ ان الله ما اخرجنا من العدم إلى الوجود لنكتفي بمشاهدة عظمة اعمالهِ الجيدة ولكن لنكون مساعدين عليها . وقد زوَّدنا بكل القوى والمواهب اللازمة لتلك المساعدة والمناسبة لاعمالها . فعلينا ان نصارع في هذه الحياة قوادًا كنَّا او جنودًا تيامًا بتلك المساعدة . ولا نبالي بمركزنا فالعظمة في سمو المركز وعلو المكانة ولكن في القيام بالواجبات . ان فقيرًا مطلوكًا متممًا واجباتهِ الانسانيَّة اعظم عند الله من ملكٍ مقصرٍ في ما يجب عليهِ

وقد أُرسلنا من وطننا الى هذه الارض الغريبة لنعمرها ونخدم فيها ارادة الله في ثلاثة وهي : العائلة والوطن والانسانيَّة . فواجباتنا اذًا من هذا الوجه ثلاثة الواجبات للعائلة والواجبات للوطن والواجبات الانسانية . ولنا كلمة في كل منها

العائلة

اساس العائلة الام والزوج والولد . والزوج هو صاحب العائلة فعليهِ حمايتها والقيام باحتياجاتها . ولا نقصد الآن البحث في جميع ما يجب للعائلة فان الطبيعة قد جعلت حب العائلة فطريًّا في الزوج والزوجة والولد ولذلك علمتهم تعليمًا اسمى واجل من جميع تعاليم الفلاسفة . ترى رجلاً فظًّا جامد القلب غليظًا لا تؤثر فيهِ مصائب الناس ولا ينفتح صدرهُ لشيء فلا

تسرع بالحكم عليهِ اقولك انهُ بدون احساس . تريد ان ترى احساسهُ وتنظرهُ معتنياً متأثراً حادثةً عن اولادهِ . فلا حاجة لتحصيل الواجبات للعائلة . الاب يعرف ان من واجباتهِ خدمة زوجتهِ واولادهِ والقيام بنفقاتهم والام والولد يعرفان واجباتهما نحوهُ . والشرائع البشرية والطبيعية تؤيد تلك الواجبات . ثم قد تتغير الشرائع البشرية تبعاً لاهواء واضعيها واغراضهم منها ولكن الشرائع الطبيعية ثابتة راسخة كالجبال لا تتغير ولا تتقلب وهي الناموس الوطيد الذي بني عليهِ مبدأ العائلة العظيم . وليس غرضنا هنا ان نسرد واجبات العائلة ولكن ان ننبه الى ما قد يُرى من التناقض بين اخلاقنا وبين ما ترسمهُ شرائع العائلة . مثال ذلك : كنا نحترم رباط الزواج المقدس وشرف الزوجة ونحض الاولاد على محبة ابائهم والابناء على طاعة آبائهم ومع ذلك فكثيراً ما نعصي هذا الامر ونتجنب الزوجة ونكرهها ولكن ذلك في بيوتنا فقط وكأننا في الخارج نحبها الى الناس ونحرضهم عليها . نسمع زيداً يقص لنا قصة عن فلانة تتخيل لنا انها " وردة طيبة الرائحة بريئة من شوكها " ولم نسمع ان احداً تألم بالغيبة عن ابنتنا او زوجتنا لوصمها بالوهم والرذالة والسفالة ونزلنا على رأسهِ الاثيم كل قواعق الارض والسماء . فهل الشرف عزيز علينا وحدنا فقط ؟

ومن اهم الواجبات للعائلة تربية الاولاد ولكن اين الاب والام اللذان يقدران التربية قدرها ويوفيانها حقها ؟ تظن الام ان التربية قائمة باطعام الولد والباسهِ ثم هذا تسمعهُ التربية وهو تربية الجسد اي الحيوان ولكن اين تربية النفس وهي الانسان ؟ اما الاب فيقول : " اني اربي ولدي لكي يستطيع ان يكسب معاشهُ " ان هذا خطاء محض . كان من الواجب ان تقول : " اني اربيهِ ليستطيع القيام بواجباتهِ " فالتربية ليست امراً يراد بهِ الكسب والربح بل تهيئة الانسان ليكون انساناً . فمتى رأيتم ولداً قليل الاحساس شرهاً الى المال محتقراً كل ما لا يحوّل ما في يدهِ ذهباً فاعلموا ان اباهُ تعيس او شرير . انظر الى الاب في الفسحة المدرسية تجدهُ قلقاً ينتظر بفارغ الصبر افتتاح المدرسة تخلصاً من ولدهِ وعناء ملاحظتهِ والقيام عليهِ . واذا اتى الوقت المعين يجيء بهِ الى المدرسة مسروراً فيدفع الراتب ويزجهُ فيها ويعود ناعم البال السنة كلها كأنهُ نال ما يريدهُ لابنهِ من العلم والادب . وكم من اب يحسب انهُ علم اولادهُ بدفعهِ ثمن الكتب وراتب المدرسة . فهل هذا كل ما يُطلب منا لاولادنا وللعائلة

الوطن

هل حب الوطن طبيعي كحب العائلة او هو اكتسابي تغرسهُ فينا العادة . نحن لا يعجب

احد اذا قيل عن حب الوطن انهُ اكتسابي معا يُرى فيهِ من القوة والتأصل في نفس الانسان. نعيش في بيوتنا آمنين مطمئنين بمواهب الوطن وانعامهِ ثم نسمع بغتةً من جهة الحدود صوتاً ينادي ان قد داس العدو ارضكم . فتثور لذلك الخبر ونسي كل نفس ونفيس ونطلب السلاح ونهرع لصد ذلك العدو الجسور غير ملتفتين الى من نخلّف في البيوت من النساء والاولاد والمرضى . فهل تلك القوة التي تدفعنا ذلك الدفع الشديد يمكن ان تكون غير طبيعيةٍ ؟ . لا نتخذ قوة ذلك الميل دليلاً على كونهِ غريزيًّا فالتربية قد تولّد في نفوس البشر من العوائد ما لا يقلّ عنهُ قوةً . واي امر اصعب من اطلاق مئة الف من الجنود وراء قطعة من النسج سلبها العدو وتشوقهم الى انقاذها او الموت تحت حراب البنادق وسنابك الجياد ؟ . ولكن التربية جعلت ذلك امرًا هيّنًا لا يلزم لهُ الاَّ كلمات رنّانة فارغة و بضعة من الاوراق

و بالرغم عن جميع ما يُعترض بهِ على محبة الوطن يقول الفلاسفة انها طبيعيةٌ في الانسان ولا محل لاثبات ذلك هنا . وسواء كانت طبيعيةً او اكتسابيةً فلا ينقص ذلك شيئاً من واجباتنا نحو الوطن . واخص هذه الواجبات اربعة نلمّ الى كلٍّ منها الماعًا نظرًا لضيق المقام

اول هذه الواجبات الواجب العسكري

تُقضي على هذه العائلة الانسانيّة العظيمة ان تكون منقسمةً هذا الانقسام الاليم وهي ابنة أبٍ واحدٍ وامٍّ واحدة . وتقضي على اقسامها ان تكون مقرِبةً بعضها لبعض تجمع شيانها من المكاتب والمعامل والحقول لتقليدهم السلاح وتدريبهم على استعمال آلات الهلاك كأنها تستعد للفتك باعدى اعداء الانسانيةً . فتولّد من هذه الحال واجب يسمى الواجب العسكري وهو التزام الانسان بحمل السلاح دفاعًا عن وطنهِ بازاء بقيّة الممالك الاجنبيّة . فالجند اذًا سياج الدولة والامة . والخدمة العسكريّة فرض واجب على كل فردٍ من افراد الامة لانها واسطة الدفاع عن الوطن وليس عن الوطن فقط بل عن العائلة والمال والدم ايضاً . فيدفاعك عن وطنك تدافع عن نفسك وعن امرأتك واولادك وثروتك وكل مالك . وما اجبن من يُطلب الى الجندية فيرسل بدلاً منهُ جانباً من دراهمهِ الصماء . وما اضعف من يرسل رجلاً آخر يبتاعهُ بدراهمهِ ليقوم مقامهُ في الدفاع عنهُ وعن وطنهِ وعائلتهِ . هل تحسب ذلك المسكين الا امّ ولا زوجة ولا اولاد . فاذا قُتل بدلاً منك فبأي قلب و بأي عين تلقى بعد ذلك امهُ وامرأتهُ وايتامهُ وماذا تقول لهم . وما ابسل وما اشرف من يحذو حذو داساز وهو ملازم افرنسي نشأ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان يوماً ما معسكرًا بجنودهِ تجاه غابة كثيفة تفصلهُ عن العدو . فنا خيم الظلام خاف من ان يدهمهم العدو على حين

غفلة فدخل الغابة استطلاعاً . وفيما هو سائر اذا بطليعة الاعداء قد شجعت وضربت حرابها نحو صدره قائلة : « ان صرخت خرقت الحراب صدرك » فلما علم قصد الاعداء وان خلاص جيشه متوقف على صوت ينبهه به لم يهب بحياته ولم يتردد دقيقة في الجود بها حبًا بوطنه وخلاص الجيش فصرخ باعلى صوته : « احذروا العدو يا جنود » فخرقت الحراب صدره وسقط صريعاً شهيد الشهامة والوطنية

ان مثلاً عظيماً كهذا لا يستلزم شرحاً ولا ينبغي ان يقال بعده كلمة فهو وحده كاف لان يعلم الناس ماهية الواجب العسكري وقيمة الوطنية

وكما ان الدولة تحتاج الى سواعد قوية تدفع بها مطامع الاعداء في غابات الزمان كذلك هي تحتاج الى ما تصلح به تلك السواعد وتهيئ لها ممدات الدفاع . ومن هذا القبيل المال الذي به تعبئ الجيوش وتباع السلاح وتنشئ المعاقل والحصون في البر والسفن الحربية في البحر . ويلزم لها المال ايضاً لضبط البلاد وتنظيم الادارة وبناء المدارس والمكاتب وتاسيس المستشفيات وملاجىء العجزة وانشاء الطرق والسكك الحديدية والمنافع العمومية . فمن اين يجب ان تستورد هذه النفقات الطائلة ؟ — من الدين تجمع المال لمنفعتهم وحمايتهم الرعية . فعلى الرعية من هذا الوجه واجب ثان يسمى الواجب المالي اي دفع الضرائب والرسوم العادلة التي تفرضها الدولة . فمن حاول التخلص من هذا الواجب حسب اصاً يروم سرقة مال الحكومة ولذلك سموا مهربي البضائع لصوصاً . ولو جاز لنا هنا ان نشبه تشبيهاً شعرياً لقلنا ان بين غيم السماء وافراد الامة من هذا القبيل بعض المشابهة . فكما ان الغيم يمطر البحر ما يحول بعد ذلك بحرارة الشمس الى منبعة الغيم هكذا الامة تعطي الحكومة ما تنفقه لها على مصالح الامة

اما الواجب الثالث فهو الواجب المدرسي والمقصود به التزام كل احد من افراد الامة بالتعلم . وقد يتعجب البعض لوضعنا هذا الواجب بين الواجبات الوطنية و يتساءلون اي علاقة بين الوطن والمدارس فنجيب

لما عاد البرنس بسمرك منصوراً على فرنسا في الحرب الاخيرة سأله احد الجنرالات بماذا غلبت فرنسا مع ما هي عليه من القوة والمنعة ، ابكثرة العدد والعدد ام بجودة السلاح او بسرعة التعبئة ؟ فهل تعلمون بمن قال انه غلبها ؟ قال انه غلبها بذلك الرجل الحقير في الشرق الذي يقف حياته وراحته وصحته على تربية الاولاد ولا يكون جزاؤه عندنا اخيراً احسن من جزاء سنمار . قال انه غلبها « بمعلمي المدارس » . واراد بذلك ان المدارس الالمانية كانت ارقى من المدارس الافرنسية فربت الشعب الالماني تربية وضعت في نفسه عناصر القوة

والشهامة والفضيلة العسكرية والوطنية

قلنا ان الله سبحانهُ لم يعطِ الانسان تلك المواهب العظيمة ليستخدمها لخير نفسهِ فقط فالانسان لوطنهِ قبل نفسهِ فينبغي عليهِ اذًا انماء تلك المواهب وتهذيبها ليحسن خدمة وطنهِ ولا يتم ذلك الاَّ في المدرسة وعليهِ فدخول المدرسة من اهم الواجبات الوطنيَّة

بقي الواجب الاخير وتسميهِ الواجب الادبي ومدارهُ عَلَى اشتراك الفرد في شعائر الوطن وحسن السلوك وحب اللغة والبلاد وطاعة القانون

وخليق بالوطني ان يفرح لفرح وطنهِ ويتكدَّر لكدرهِ . ولا نعلم ما اذا كان العقلاء قد استحسنوا رفض العلاَّمة باستور الشهير الوسام الذي اهداهُ اليهِ امبراطور الامان فقد رفضهُ قبل وفاتهِ ببضع سنوات قائلاً " ان لم يكن للعلم وطن فالعالم وطن " ومن ذلك الحين ذهب هذا القول مثلاً . واراد بهِ انهُ بصفة كونهِ انسانيًّا لا يقبل اكرامًا من يدٍ المانيَّة مزَّقت احشاء وطنهِ وابقت في نفوس اخوانهِ مرارة الموت الى الآن

هذا هو الاشتراك في شعائر الوطن وعواطفهِ اما حسن السلوك فيهِ فواجب ادبيٌّ على كل من يعلم اهميَّة القدوة . وليكن معلومًا ان القدوة تؤثر في الناس تأثيرًا عظيمًا ان كانت حسنة فتأثيرًا حسنًا وان كانت سيئة فتأثيرًا سيئًا . ولا يظن الناس ان التربية تحصل بين جدران البيت والمدرسة فقط — كلاَّ فان كل عبارة يسمعها الناس في الطرق وكل مشهد يشهدونهُ في الاسواق وكل اجتماع يحضرونهُ وكل منظر يرونهُ حتى الابنية الصامتة والمناظر الجامدة — كل ذلك يؤثر في تربيتهم وفي افكارهم تأثيرًا عظيمًا . فعلينا ان نجعل كل ما حولهم حسنًا ليؤثر فيهم تأثيرًا حسنًا وبذلك نخدم الوطن والآداب العموميَّة خدمة عظيمة

واما طاعة القانون وحب اللغة وحب البلاد فواجبات من اهم الواجبات الوطنيَّة . واذا لم نقل فيها شيئًا فليس ذلك لانها قليلة الاهمية بل لان الجميع يعرفون وجوبها فضلاً عن ان المجال ضيق ولا يسعنا لاستيفاء الكلام

ضربة الغزلان

يُضرَب المثل بالغزال في جمال المنظر وانس الحضر وطيب اللحم . والذي يصطاد غزالاً في يومهِ يحسب ان نجمهُ في سعود . ولكن الغزلان قد تكثر في بعض الاماكن حتى تصير ضربة على السكان مثال ذلك ان اهالي كليدونيا الجديدة يشكون الآن من كثرة الغزلان عندهم فانها قد اتلفت زرعهم ودخلت اهراءهم واكلت ما فيها . وهي ليست من حيوانات بلادهم بل دخيلة فيها لكنها وجدت المرعى فيها خصيبًا والناس قلالاً فنمت وتكاثرت وكان من امرها ما كان